بِسم الله الرحمن الرحيم

الرسالَةُ الرابِعةُ:

فَلْسَفَةُ الجِهاد فِي الإسْلام.

(الفَلْسَفَة: عِلْمُ حقائِقِ الأشْياءِ؛ والعَمَلُ بِما هُوَ أصْلَح)

الحَمْدُ للهِ؛ أولاً وآخراً؛ والصلاةُ والسلامُ علَى عَبْدِهِ ورَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وتابِعِيهِمْ بإحْسانٍ؛ أما بَعْد:

فَقَدِ اخْتَرْتُ هَذا العُنْوانَ لِرِسالَتِي هَذهِ لأنَّنِي أَرَدْتُ بِهِ مُخاطَبَةَ المُسْلِمِينَ الذِينَ اشْتَبَهَ علَيْهُمُ أمْرُ الجِهادِ فِي الإسْلام؛ أوِ المُتَأثِّرِين بالعَقْلِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ، أوّلاً، **وغَيرِهِمْ مِن عُقَلاءِ الأُمَمِ الأُخْرى ثانِياً**، فِي الوَقْتِ الذي كَثُرَ فِيهِ الحَدِيثُ عَن الإسلامِ ومَبادِئِهِ وأُصُولِهِ عَلَى وَجْهٍ يُوحِي بِتَحامُلِ المُتَكَلِّمِ علَيهِ أحْياناً؛ وبِجَهْلِهِ بِحَقِيقَتِهِ أحْياناً أُخْرَى!.

وحَمَلَنِي عَلَى الكِتابَةِ فِي هَذا؛ أنّنِي رَأَيْتُ كَثِيرِينَ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ واحِداً مِن صِنْفَين:

- **رَجُلاً لا يُفْصِحُ** عَمّا يَجِبُ الإفْصاحُ عَنْهُ، ولِهَؤلاءِ مِن وراءِ ذلكَ مَآرِبُ شَتَّى، وما أنا عَلَيهِمْ بِوَكِيلٍ، مَعَ التَّنْبِيهِ علَى أنَّ الواجِبَ علَى مِن يَتَصَدَّرُ لِمِثْلِ هَذا الأمْرِ أنْ يُبَيِّنَ للناسِ ما أمَرَ اللهُ تعالَى بِهِ وارْتَضاهُ لِعِبادِهِ، ولَيسَتْ مُجاراةُ الناسِ فِيما يَظُنُّونَ من شَأنِ العُلَماءِ، كما قالَ آخِرُ شيخٍ للإسلامِ فِي الدولَةِ العُثْمانِيّةِ الشيخُ مُصْطَفَى صَبْري رَحِمَهُ الله.
- **ورَجُلاً يَغْلُوا** لِجَهْلِهِ فِي دِينِ الإسلامِ، فَيَنْسِبُ إلَى الشرْعِ ما لَيْسَ مِنْهُ؛ ويَحْمِلُ عَلَيهِ كُلَّ خَطأٍ وزَلَلٍ!، فَرُبَّما اغْتَرَّ بِهِ جاهِلٌ أو مُغْرِضٌ فَحَسِبَ ذَلكَ مِنَ الجِهادِ الذِي يُقِرُّهُ الشرْعُ! ولَيْسَ مِنْهُ، **والإنْصافُ فِي زَمانِنا هَذا أنْدَرُ مِن عَنْقاءِ مُغْرِب.**

ثُمَّ إنَّ الحَقَّ وَسطٌ بَينَ هَذين، والجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ مِن أعْظَمِ مَحاسِنِ الإسلام - والإسلامُ مَحاسِنٌ كُلُّهُ -، **مَعَ التَّذكِيرِ بأنَّ الجِهادَ شِرْعَةٌ كانَتْ مَوْجُودَةً فِي الدّياناتِ السماوِيَّةِ سابِقاً**؛ كَما تَرَى مِثالَ ذلكَ - إنْ شِئْتَ - فِي سِفْرِ العَدَدِ فِي بِدايَةِ (الإصْحاحِ الحادِي والثلاثِين)، وَفِي سِفْرِ التّثْنِيَةِ فِي (الإصْحَاحِ العِشْرِينَ العَدَدِ العاشِرِ ومابعدَه)، وفِي إنْجِيلِ مَتَّى فِي (الإصْحاحِ العاشِرِ العَدَدِ الرابِعِ والعِشرين)، وغَيرِ ذلك، **ولَمْ يَنْفَرِدْ بِها الإسلامُ كَما قَدْ يُظَنُّ،** وما أمَرَ اللهُ تَعالَى بِشَيءٍ إلاَّ وفِيهِ سَعادَةُ البَشَرِيَّةِ وَشِفَاؤُها، ولاَ نَهَى عَن شَيءٍ إلاَّ وفِيهِ داءُهَا وَشَقاؤُها، **كَيفَ ونَبِيُّ الإسْلامِ قَدْ بُعِثَ إلَى كُلِّ عَرَبِيٍّ وعَجَمِي،** وإلَى أُمَمِ الأرْضِ قاطِبَةً إلَى أنْ يَرِثَ اللهُ الأرْضَ ومَنْ عَلَيها، فَلا نَجاةَ لأحَدٍ إلا باتِّباعِ دِينِهِ، وذلكَ مَعْلُومٌ بالضَّرُورَةِ من دين الإسلام.

ولَيْسَ دِينُ الإسْلامِ كَغَيْرِهِ مِن الدِّياناتِ الأرْضِيَّةِ – والتِي قَلَّدَها مَن حَرَّفُوا الدِياناتِ السماوِيَّةِ أيضاً -؛ لَيسَ هُوَ كَتِلْكَ الدّياناتِ التِي أغْفَلَتْ مَطالِبَ الرُّوحِ أو مَطالِبَ الجَسدِ، أوْ كِلَيْهِما مَعاً!، أو جاءَتْ مُصادِمَةً للنّوازِعِ البَشَرِيَّةِ التِي هِي مِن طَبِيعَةِ النَّفْسِ الإنْسانِيَّةِ، أوْ خارِجَةً عِن مُراعاةِ السُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ والاجْتِماعِيَّةِ التِي تَسِيرُ علَى وَفْقِها حَرَكَةُ الكونِ والحَياةِ.

فَلَيْسَ هُو كالدِّيانَةِ الهِنْدِيَّةِ عِنْدَ (الجانْتِيِّينَ) الذينَ اعتَقَدُوا أنَّ اللذَّةَ الحِسِّيَّةَ خَطِيئَةٌ دائِماً؛ وقامَتْ عَقِيدَتُهُمُ الدينِيَّةُ علَى أساسِ الشَكِّ العَمِيقِ فِي قِيمَةِ

الحَياةِ والإنْكارِ الشدِيدِ لَها، وأَجازَتْ الانْتَحارَ بَتَجْوِيعِ النَّفْسِ إلَى المَوتِ؛ حَتّى ماتَ كَثِيرٌ من زُعَماءِ الجانْتِيِّينَ بِهَذهِ الوسِيلَة!.
وهَكَذا كانَ حالُ الدِيانَةِ البُوذيَّةِ التِي ازْدَرَتْ الحَياةَ البَشَرِيَّةَ؛ وَزَعَمَتْ أنَّ الوِلادَةَ أمُّ الشرُورِ كُلِّها!، ودَعَتْ إلَى قَطْعِ الإنْسالِ جُمْلَةً واحِدَة، وهِي المَسْأَلَةُ التِي تَفَرَّعَتْ عَنْها فَلْسَفَةُ (شوبنهَور).
والنَّزْعَةُ السُّلُوكِيَّةُ المُوجُودَةُ عِنْدِ طَوائفِ المُتَصَوِّفَةِ المُنَتَسِبَةِ إلَى الإسلامِ - والتِي تَطَوَّرَتْ إلَى فَلْسَفَةٍ تَتَناقَضُ مَعَ مَنْهَجِ الإسلامِ فَدَعَتْ إلَى الفَناءِ وقَتْلِ الإحْساسِ بالحَياةِ – لا تُمَثِّلُ الإسلامَ ومَبادِئَهُ التِي بُعِثَ بِها رُسُولُ اللهِ صَلُواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيه، إنَّما هِي مَسْتَمَدَّةٌ مِن أُصُولِ الفَلْسَفَةِ الأَفْلاطُونِيَّةِ المُحْدَثَةِ وبَعْضِ المَذاهِبِ الفارِسِيَّةِ والهِنْدِيَّةِ.
ولَمْ يَسْلكِ الإسلامُ أيْضاً مَسْلكَ المادِّيَّةِ الغَرْبِيَّةِ المُعاصِرَةِ التِي فَتَحَتْ لِتَلْبِيَةِ شَهَواتِ الجَسَدِ ومطالِبِهِ البابَ علَى مِصْراعَيْهِ، وأهْمَلَتْ مَطالِبَ الرُّوحِ فَجَنَتْ بِذلكَ علَى النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ أعْظَمَ الجِناياتِ.

بَلْ الإسْلامُ رَاعَى النَّوازِعَ الفِطْرِيَّةَ البَشَرِيَّةَ أَشَدَّ المُراعاةِ، وَوَقَفَ مِنْها مَوْقِفاً وَسَطاً؛ تَنْصُرُهُ الحِكْمَةُ ويُؤَيِّدُهُ العَقْلُ، فَلا هُوَ بِالذِي كَبَتَها وأَغْلَقَ البابَ دُونَها جُمْلَةً واحِدَةً فَيَجْنِيَ بِذلكَ علَى مَطَالِبِ الرُّوحِ التِي لا تَكُونُ رُوحاً إلاَّ بِها، ولا هُوَ بالذِي أَطْلَقَ لَها العِنانَ فَتَنْقَلِبُ مَعْبُوداً مِن دُونِ اللهِ؛ وتُضْحِي أسِيرَةَ الأهْواءِ والشَّهَوات.

فالإسْلامُ لَما كانَ شَرِيعَةً تَشْمَلُ مَناحِيَ الحَياةِ كُلَّها؛ العَقَدِيَّ مِنْها؛ والعِبادِيَّ؛ والعِلْمِيَّ؛ والتَّرْبَوِيَّ؛ والاجْتِماعِيَّ؛ والسِّياسِيَّ؛ والاقْتِصادِيَّ؛ وغَيرَ ذلكَ **بُنِيَتْ أَحْكامُهُ** كُلَّها – ومِنْها الجِهادُ – **علَى رُكْنَيْنِ أساسِيَّيْنِ:**
الأوَّلِ: مُوافَقَةِ السُّنَّةِ الكَوْنِيَّةِ؛ ورِعايَةِ الضَّروراتِ والحاجاتِ البَشَرِيَّةِ والمَطالِبِ الاجْتِماعِيَّةِ التِي لا انْفِكاكَ لَها عَن الطَّبِيعَةِ الإنْسانِية.
وَالثانِي: بِناءِ أَحْكامِهِ عَلى تَحْصِيلِ ما أمْكَنَ مِن المَصالِحِ، وَدَفْعِ ما أَمْكَنَ مِن المَفاسدِ، مُراعِياً فِي ذلكِ الأَوْلَى فَالأَوْلَى، وتَقْدِيمَ مَصْلَحَةِ الجَماعَةِ والأمَّةِ علَى مَصالِحِ الأفْرادِ عِنْدَ التَّعارُض.

فَكما راعَى حاجَةَ الإنْسانِ لِلزَّواجِ وهُو مَطْلَبٌ فِطْرِيٌّ، **وراعَى** ما جُبِلَ عَلَيهِ مِنْ حُبِّ التَّمَلُّكِ وهُو مَطْلَبٌ فِطْرِيٌّ كذلك، **ورَاعَى** تَطَلُّعَ الإنْسانِ إلَى الرُّقِيِّ والعِلْمِ والمَعْرِفَةِ؛ وهُوَ مَطْلَبٌ فِطْرِيٌّ كَسابِقَيْهِ، ونَحْوَ هَذا من المَطالِب، راعَى كَذلكَ ما جُبِلَتْ علَيهِ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ مِنْ القُوَّةِ الغَضَبِيَّةِ التِي هِيَ وَسَطٌ بَينَ القُوَّةِ العاقِلَةِ والقُوَّةِ الشهْوِيَّةِ فَهُما يَتَنازَعانِها!، وهَذهِ القُوَّةُ هِيَ التِي تَرْجِعُ إلَيْها غَرِيزَةُ حُبِّ القِتالِ فِي الإنْسانِ، **ولا سَبِيلَ إلَى افْتِراضِ عالَمٍ خالٍ عَن القِتالِ إلا بافْتِراضِ إنسانٍ خالٍ عَن القُوَّة الغَضَبِيَّةِ؛** فَهُو مِن ثَمَّ خالٍ عَن هَذه النَّزْعَةِ، ومِثَالُ هَذا ما لَو قُلْنا: لا سَبِيلَ إلى افْتِراضِ مُجْتَمَعٍ يَمْتَنِعُ عن النِّكاحِ والإنْسالِ؛ إلاَّ بافْتِراضِ إنْسانٍ لا يَمِيلُ إلَى الجِنْسِ الآخَرِ طَبْعاً، فَكما أنَّ هَذا خارِجٌ عن الجِبِلَّةِ الإنْسانِيةِ والفِطْرَةِ البَشَرِيَّةِ؛ فَكَذلكَ الأَوَّلُ ولا فَرْقَ، ولِذا قالَ (كِرِيسِي مُورِيسُونَ) وهُو الرئِيسُ السابِقُ لأكادِيمِيَّةِ العُلُومِ فِي (نيُويُورك): (إنَّ نَزْعَةَ القِتالِ والصراعِ فِطْرَةٌ بَشَرِيَّةٌ، وَإِنَّ صُوَرَ القِتالِ هِيَ التي تَتَغَيَّر)؛ وهَذا كلامٌ صَحِيحٌ لا غُبارَ عَلَيه،

مُوجُودٌ فِي البَشَرِ مُنْذُ عَهْدِ ابْنَي آدَمَ، ولا نَعْلَمُ دَهْراً مَرَّ عَلَى البَشَرِ وقَدْ خلا عَنِ ذلكَ، فَمُنْذُ فَجْرِ التارِيخِ أو مَعَ نَشْأة الشعُوبِ البِدائِيَّةِ كما يَقُولُونَ حاوَلَ الإنْسانُ أنْ يُقَلِّدَ ما للحَيَوانِ مِن أسْبابِ القوَّةِ فِي المَخالِبِ والأظْفارِ والأسْنانِ والأنْيابِ والقُرُونِ والجُلُودِ؛ واسْتَعْمَلَ كَثيراً مِن الأشْياءِ التِي تُحِيطُ بِهِ فِي صِناعَةِ تِلكَ الآلاتِ، فَصَنعَ الحِرابَ والسِّهامَ والمُدَى والرِّماحَ والخَناجِرَ والسُّيُوفَ والدُّرُوعَ؛ حَتّى تَفَوَّقَ علَى الحَيَوانِ فِي ذلكَ؛ مِمّا جَعَلَ (افْرانِكْلِن) يَزْعُمُ أنَّ الإنْسانَ حَيَوانٌ صانِعٌ للآلاتِ!، والدارِسُونَ الباحِثُونَ يَقُولُونَ: إنَّ الحَرْبَ كانَتْ وَسِيلَةً لِرَفْعِ مُسْتَوى الإنْسانِ شَجاعَةً وإقْداماً وشِدَّةً وقَسْوَةً ومَهارَةً وذكاءً؛ كما دَفَعَتْهُ إلَى الاخْتِراعِ وتَطْوِيرِ الآلاتِ وفُنُونِ الحَرْبِ؛ وإن كانَ قَد اسْتَفادَ من ذلكَ فِي السّلْمِ أيضاً.

ورَأَيْنا فِي تارِيخِ الشُّعُوبِ كُلِّها – القَدِيمِ مِنْها والحَدِيثِ – **الاعْتِدادَ بالقُوَّةِ** والتَّنافُسَ فِي أسْبابِها؛ **وَتَمْجِيدَ البُطُولاتِ والأبْطالِ؛ وتَسْطِيرَ المَلاحِمِ** التِي تَعْتَمِدُ علَى جُزْءٍ من الحَقِيقَةِ التارِيخِيَّةِ؛ وحِفْظَها؛ ابْتِداءً مِن مَلْحَمَةِ (جَلْجَمِيش) البابُلِيَّةِ التِي نُظِمَتْ فِي بِلادِ ما بَيْنَ النَّهْرَينِ سَنَةَ (2000ق.م)؛ والمَلْحَمَتَينِ الهِنْدِيَّتَينِ (المَهابَهارِتا) و (الرامَايانا)؛ وتَتَحَدَّثُ الأولَى مِنْهُما عَن المَعارِكِ التِي دارَتْ بَينَ فَرْعَينِ مِن أسْرَةِ (بَهارْتا) الحاكِمة، ومَلْحَمَةِ رُوما الوَطَنِيَّةِ وهِيَ (الإنْيادَةُ) التِي كَتَبَها (فِيرْجِل) أشْهَرُ شُعَراءِ رُوما القَدِيمَةِ المُتَوفّى سَنَةَ (19ق.م)؛ وتَحَدَّثَ فِيها عَن البَطَلِ الطِّرْوادِيِّ (إيناس)؛ وزَعَمَ أنَّ الآلِهةَ عَيَّنَتْ (أغسطس) حَفِيدَ (إيناس) لإنْقاذِ رُوما وبِنائِها من جَدِيدٍ؛ بَعْدَ الحُروبِ الأهْلِيَّةِ الرومانِيَّةِ فِي الأرْبَعِينات والثلاثِينات قَبْلَ المِيلادِ، وأرادَ (فيرْجل) من خِلالِ ذلكَ – كما يُقال - تَعْلِيمَ الرومانِ وجُوبَ اسْتِخْدامِ القُوَّةِ لإفادَةِ الآخَرِينَ؛ ولِنَشْرِ السلامِ فِي العالَمِ!. وهَذهِ المَلْحَمَةُ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ مَلْحَمَتَي (هُومَر) - الشاعِرِ الأعْمَى الذي عاشَ فِي القَرْنِ السابِعِ قَبْلَ المِيلادِ - (الإلْياذَةِ والأُودِيسَةِ) الشَّهيرَتَينِ، وعلَى الكُتُبِ السِتَّةِ لِمَلْحَمَةِ (فِيرجل) بَنَى (دانْتِي ألْجِيرِي) الإيطالِيُّ مَلْحَمَتَهُ المَشْهُورَةَ (الكُومِيدْيا الإلَّهِيَّةَ!) التِي كَتَبَها عام (1321) للمِيلاد. **وهُناكَ مَلاحِمُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ؛** كالمَلْحَمَةِ الإنْجِلِيزِيَّةِ (بِيوُولْف) فِي القَرْنِ الثامِن المِيلادِي، والفَرَنْسِيَّةِ (أغْنِيةِ رُولانِ) فِي القَرْنِ الثانِي عَشَرَ، والأسْبانِيَّةِ (مَلْحَمَةِ السيِّدِ) التِي تَحْكِي قِصَّةَ بَطَلٍ قَشْتالِي؛ وهِي أكْثَرُ واقِعِيَّةً مِن غَيرِها من المَلاحِمِ التِي كُتِبَتْ فِي بِلادٍ أُخْرَى فِي العُصُورِ الوُسْطِي فِي القَرْنِ نَفْسِهِ أيْضا أو الذي يَلِيهِ، ومِن أواخِرِها مَلْحَمَةُ الإنْجِلِيزِيِّ (جُون مِلْتُون) بِعُنْوانِ: (الفِرْدَوسِ المَفْقُودِ)؛ كَتَبها سَنَة (1667) للمِيلادِ، ومَلْحَمَةِ البَرازِيلِيِّ (خُوسِيهِ دِاغاما) بِعُنْوانِ (أُورُوجْواي: 1769) وصَفَ فِيها الحَرْبَ بَيْنَ المُسْتَعْمِرِينَ الأورُوبيينَ والهُنود، ثُمَّ الأرْجَنْتِينِيُّ (خُوزِيهِ هِيرْنانْدِيزْ)؛ الذِي كَتَبَ أفْضَلَ ما عُرِفَ مِن أدَبِ (الغاوْشُو) - وهُمْ: رُعاةُ بَقَرٍ رُحَّلٍ – مَلْحَمَةَ (مارْتِن فِيرو) بَيْنَ عامَي (1872 و 1879) يَتَحَدَّثُ فِيها عَنْ حُرُوبٍ دارَتْ بَينَ بَطلٍ مِن (الغاوشُو) والهُنُودِ الأمْرِيكِيِّين.

وإذا أَضَفْنا إلَى ذلكَ تَوارِيخَ الحُرُوبِ التِي جَرَتْ فِي العالَمِ مُنْذُ خُـلِقَ الإنْسانُ؛ ولا تَزالُ تَجْرِي إلَى يَوْمِنا هَـذا، **وأضَفْنا إلَيها عِنايَةَ الناسِ بالفُرُوسِيَّةِ** مُنْذُ وَعَوْا دَوْرَ الخَيْلِ فِي الحُرُوب؛ **ومَنْحَ الفُرْسانِ**

الشعاراتِ والأَلْقابَ كَما كانَ ذلكَ عُرْفاً عِنْدَ الأُمَمِ العَرَبِيَّةِ حَتّى كانَ من الفُرْسانِ مِن يُعَلِّمُ علَى نَفْسِهِ بِعلامَةٍ، وكَذلكَ ما يُعْرَفُ بِشِعَارَاتِ النَّبالَةِ التِي إستَخْدَمَها فُرْسانُ النصارى فِي أوروبا الغَرْبيةِ فِي الحُرُوبِ الصلِيبِيةِ، **إذا أَضَفْنا هَذا وَذاكَ وكَثِيراً مِن الشواهِدِ الأُخْرى؛** ثَبَتَ صِحَّةُ ما قالَهُ (مُورِيسُون) مِن أنَّ حَياةَ الإنْسانِ علَى وَجْهِ الأَرْضِ لا يُمْكِنُ أَنْ تَخْلُوَ عَن هَذه النَّزْعَةِ الفِطْرِيَّةِ؛ نَزْعَةِ القِتال.

وزِدْ عَلَى هَذا وذاكَ قِيامُ الحَياةِ البَشَرِيَّةِ عَلى قانُونِ التَّدافُعِ والتَّنازُعِ، والظُلْمُ والطُّغْيانُ والعُدْوانُ أَصْلٌ فِي الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ؛ ما لَمْ يَمْنَعْها عَنْهُ دِينٌ راسِخٌ أوْ سُلْطانٌ قَوِيٌّ، فَلا مَحَلَّ فِي هَذا العالَمِ لِمِثْلِ الفَلْسَفَةِ (الكُونْفُوشِيَّةِ) الصِينِيَّةِ التِي تَدْعُو إلَى سِيادَةِ العَدْلِ والفَضِيلَةِ مِن خِلالِ نِظامٍ اجْتِماعِيٍّ يُقَدِّمُ القُدْوَةَ الحَسَنَةَ بِما لَها مِن قُوَّةٍ صامِتَةٍ فِي كُلِّ أُسْرَةٍ مِن الأُسَرِ، مِمّا يُؤَدّي إلَى مُحافَظَةِ الدولَةِ علَى الهُدُوءِ فِي أَرْضِها؛ والعَدالَةِ فِي جَمِيعِ أَرْجائِها، ومِن ثَمَّ يَسُودُ السلامُ العالَمَ بِأَجْمَعِهِ ويَسْعَدُ جَمِيعُ مَن فِيه**!، فَهَذه الفَلْسَفَةُ ما يَقُولُ (ولْ دِيورانَتْ) أَيْضاً: تَدْعُو إلَى الكَمالِ المُطْلَقِ وتَنْسَى أنّ الإنْسانَ حَيَوانٌ مَفْتَرِس!.**

وإذا كانَ القِتالُ وحُبُّ التَّمَلُّكِ طَبِيعَةً فِي البَشَرِ لا انْفِكاكَ لَهُمْ عَنْهُا؛ فَلا بُدَّ إذَنْ – عَلَى سَبِيلِ السَّبْرِ والتَّقْسِيمِ - مِن واحِدٍ مِن أُمُورٍ ثَلاثَةٍ:

- **إمّا أنْ تُطْلَقَ أيادِي البَشَرِ** ويُرْخَى العِنانُ لِيَجْرِيَ مَن شاءَ وَراءَ هَذهِ النَّزْعَةِ – أُمَّةً كانَ أو فَرْداً - كما يُمْلِيهِ الهَوى وتَفْرِضُهُ الرَّغَباتُ والشَّهَواتُ، وهَذا لا يُمْكِنُ أنْ يَقُولَ بِهِ عاقِلٌ مِن البَشَر، لأَنَّهُ يَقْتَضِي أنْ تَسْتَحِيلَ الأَرْضُ إلَى غابَةٍ يَأْكُلُ القَوِيُّ فِيها الضعِيفَ!، فَلا يُنْصَفُ فِيها مَظْلُومٌ؛ ولا يَنَالُ ذُو حَقٍّ حَقّاً.
- **وإمّا ما يُقابِلُ الإطْلاقَ وهُوَ التَّقْيِيدُ، ثَمَّ هَذَا: إمّا تَقْيِيدٌ بالهَوَى،** فَتَضعُ كُلُّ أُمَّةٍ مِن قَوانِينِ الحَرْبِ ما شاءَتْ؛ والعَدْلُ عِنْدَهُمْ ما يَراهُ أكابِرُهُمْ؛ حَتَّى وإنْ كانَ عَينَ الظُّلْمِ فِي نَفْسِ الأَمْرِ!، **لأَنَّ القانُونَ الوَضْعِيَّ إنَّما يَفْرِضُهُ القَوِيُّ ولا حِيلَةَ للأُمَمِ الضَّعِيفَةِ فِيه، وأَهَمُّ مِن هَذا** قُصُورُ العَقْلِ البَشَرِيِّ وعَجْزُهُ عَن الاستِقْلالِ بإدْراكِ مصالِحِهِ، فَضْلاً عن مَصالِحِ غَيرِهِ، فَكَيفَ بِمصالِحِ البَشَرِ أجْمَعِين.
- **وإمّا – وهُو الثالثُ – أنْ يُرَدَّ إلَى أحْكامِ شَرْعٍ سَماوِيٍّ** نَزَلَ من اللهِ تعالَى ورَضِيهُ لِعبَادِهِ؛ وهُو جامِعٌ لِمصالِحِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، وحَلالُهُ وحَرامُهُ إنَّما هُو مِن عِنْدِ الخالِقِ سُبْحانَهُ الذِي أحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً، ومن ذلكَ مَصالِحُ الخَلْقِ وأسْرارِهِم، ولَيْسَ ثَمَّةَ ما يَصْلُحُ لِهَذا إلا شَرِيعَةَ الإسلامِ، لأَنَّهُ خاتَمُ الأَدْيانِ وخَيرُها، وهُو الدِّينُ الذي أُمِرَ بِهِ البَشَرُ أجْمَعُونَ، وكُلُّ مَن ارْتَضَى ديناً سِواهُ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُو فِي الآخِرَةِ من الخاسِرِينَ، وذلكَ الحَقُّ الذِي لا مِرْيَةَ فِيهِ ولا رَيْبَ، وما مِن أَحَدٍ من عُلَماءِ المُسْلِمِينَ إلا وهُوَ يُباهِلُ (To curse on another) عَلَى

.....
.....

صِحَّةِ هَذَهِ الدَّعْوَى، كَما يُباهِلُونَ علَى بُطْلانِ دَعْوَى أنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ؛ أو أنَّ المَسِيحَ هُو اللهُ؛ أو أنَّهُ ابنُ اللهِ، تعالَى اللهُ عَما يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً.

وإذا تَقَرَّرَ أنَّ الإسْلامَ هُو الدِينُ الحَقُّ، فَإنَّ الواجِبَ علَى حَمَلَتِهِ إبْلاغُهُ للنَّاسِ، لكِنْ دَونَ حَوائِلَ تَحُولُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُ، وَالجِهادُ إنّما شُرِعَ في الإسْلاَمِ - سَواءٌ كانَ دَفْعاً أو طَلَباً – إزالَةً للعَوائقِ والحواجِزِ التي تَحُولُ بَيْنَ الناسِ وبَيْنَ بُلُوغِ دَعْوَةِ الله إليهم، **أما فِي جِهادِ الدَّفْعِ** حِينَ يَتَسَلَّطُ عَلَى الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ غَيْرُها فَالأمْرُ واضِحٌ، **وأمّا فِي جِهادِ الطَّلَبِ؛** فَإنَّهُ ما مِن دَعْوَةٍ مِن الدَّعَواتِ ولا أُمَّةٍ مِن الأمَمِ مَهْما بَلَغَتْ مِنَ الانْحِطاطِ فِي العَقائدِ والمُثُلِ والقِيمِ؛ إلاّ وهِي تَعْمَلُ عَلَى تَصْدِيرِ ذلكَ إلَى غَيْرِها مِن الأمَمِ؛ حَتَّى ولَو كانُوا مِن الأقْوامِ الذِينَ عَبَدُوا (البَصَلَ) عَلَى ضِفافِ نَهْرِ النِّيلِ!؛ كَما دَلَّلَ عَلَى عِبادِتِهِمْ لَهُ (تِين: Taine) حِينَ ذكَرَ أنَّ البَصَلَ أغْضَبَ (بُوسيه:Bossuet) وأحْفَظَهُ!، وكُلُّ الجماعاتِ العَشَرِيَّةِ تَكادُ تَتَّفِقُ – كِما يَقُولُ (ولْ ديورانت) عَلَى أنَّ سائِرَ الجماعاتِ أحَطُّ مِنها؛ حَتَّى إنَّ الهُنُودَ الأمْرِيكِيِّينَ لَيَعُدُّونَ أنْفُسَهُمْ شَعْبَ اللهِ المُخْتارِ!، - وأصابَ (ولْ ديورانت) إذْ لَمْ يَدَّعِ اتِّفاقَ البَشَرِ علَى ذلك؛ فَإنَّ دِينَ الإسلامِ بِحَمْدِ اللهِ لَيْسَ كَذلكَ؛ وإنّما يَتَفاضَلُ الناسُ فِيهِ بِتَقْوى اللهِ تعالَى ولا شَيْءَ سِواهَا كائِناً ما كانَ -، **وإذِ الأمْرُ كَما قَدَّمْناهُ وبَيَّنّاهُ فَلَنْ يُخَلِّيَ عُتَاةُ البَشَرِ وطُغاتُهُمْ بَينَ الإسْلامِ والبَشَرِ، ولا يُمْكِنُ عَلَى هَذا إيصالُ دَعْوَةِ الإسلامِ إلَى الخَلْقِ إلاَّ بِخُضوعِ الناسِ كافَّةً لِسُلطانِ الإسلامِ؛ لا بِإكْراهِهِمْ علَيهِ، وَثَمَّةَ فَرْقٌ بَيْنَ** إجْبارِ الناسِ عَلى اعْتِناقِ الإسْلامِ وإكْراهِهِمْ عَلَيْهِ؛ وهُوَ الذي لَمْ يقعْ في التاريخِ الإسلامِيِّ البَتَّةَ!؛ **وبَينَ خُضُوعِهِم لِسُلْطانِه**، وهَذا أمْرٌ واضِحٌ بَيِّنٌ؛ لَهُ فِي الواقِعِ كَثِيرٌ مِن الأمْثِلَة، وإنما أقْبلَ الناسُ على دِينِ الإسلامِ أفْواجاً لِما حَمَلَهُ مِنْ المُثُلِ والمَبادِئِ والقِيَمِ الأخْلاقِيَّةِ التي أضَلَّتْها الأمَمُ الأخْرى؛ مِن النّصارَى واليَهُودِ وغَيْرِهم، **حَتَّى وجَبَ عِندَ تِلكَ الأمَمِ أنْ تَقْتَرِنَ المَدَنِيَّةُ بالرذيلَةِ!!؛** كَمَا قَالتْ الأميرةُ العُمانِيَّةُ المُتَنَصِّرَةُ (سالِمَةُ بِنْتُ السلطانِ سَعِيدٍ؛ سلطانِ عُمَانَ وزَنْجِبارَ فِي النِّصْفِ الأولِ من القَرْنِ التاسِعِ عَشر؛ والتِي تَسمَّتْ بَعْدَ تَنَصُّرِها باسمِ (إيمِيلَى رُوثْ)**!، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلى أنَّ القِيَمَ والمُثُلَ مَهْما عَلَتْ - ونَعنِي هُنا الإسلامَ ولاَ شَيْءَ سِواهُ - لَنْ تَحُلَّ مَحَلَّ القُدْوةِ اللائِقَ بِها مالمْ تَكُنْ مَرْهُوبَةَ الجانِبِ مَصُونَةَ الحِمَى!؛ للَّذِي قَدَّمْناهُ أوَّلا، وَلأنَّ تَقْليدَ الأمَّةِ الضعِيفَةِ للأمَّةِ الغالِبةِ سُنَّةٌ اجْتِماعِيَّةٌ كما قال ابْنُ خَلْدُونٍ وتَقَرَّرَ في عِلْمِ الاجْتِمَاع، وما فِي الأمَّةِ القَوِيَّةِ مِنَ المَحاسِنِ والمَساوِئِ يَسري إلى جَسَدِ الأخْرَى ولا بدّ، وبِهذا التقرير تَعْلَمُ أنَّ (الجِهادَ) الذي شَرَعَهُ الإسلامُ لَيْسَ فَرْضاً شَرْعِيّاً فَحَسْبُ؛ بَلْ هُوَ ضَرورَةٌ حَياتِيَّةٌ جارِيةٌ وَفْقَ سُنَّةٍ رَبانِيَّةٍ لا تتَغَيَّرُ ولا تَتَبَدَّل.**

وهَذا مَعْنَى ما وَرَدَ فِي الحَدِيثِ أنَّ النَبِيَّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ بُعِثَ بالسَّيْفِ بَينَ يدِي الساعَةِ: **أنْ يَخْضَعَ الناسُ لِسُلْطانِ الإسْلامِ وأحْكامِهِ، لا أنَّ السَّيْفَ لإكْراهِ الناسِ علَى اعْتِناقِ دِينِ الإسْلام**، ومِمَّنْ فَطِنَ لِهَذِهِ الحَقِيقَةِ جَماعَةٌ مِن علَماءِ الغَرْبِ؛ مِن أمْثالِ (غوسْتافْ لوبون)؛ و(تُومَاسْ

كَارْلِيل) وهُو كاتِبٌ غَرْبِيٌّ مَشْهُورٌ - يَقُولُ فِي كِتَابِهِ (الأَبْطالُ وَعِبَادَةُ البُطُولَةَ): إنّ اتّهَامَهُ – يَعْنِي النَّبِيَّ مُحَمَّداً صلَواتُ اللهِ وسلاَمُهُ علَيه - بِالتّعْوِيلِ عَلَى السَّيْفِ فِي حَمْلِ النَّاسِ عَلَى الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ سُخْفٌ غَيْرُ مَفْهُومٍ!؛ إذْ لَيْسَ مِمّا يَجُـوزُ فِي الفَهْمِ أَنْ يُشْهِرَ رَجُلٌ فَرْدٌ سَيْفَهُ لِيَقْتُلَ بِهِ الناسَ؛ أَوْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، فَإِذَا آمَنَ بِهِ مَنْ يَقْدِرُونَ عَلَى حَرْبِ خُصُومِهِمْ؛ فَقَدْ آمَنُوا بِهِ طَائِعِينَ مُصَدِّقِينَ، وَتَعَرَّضُوا للحَرْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا. انتهى.

ومِن الأدِلَّةِ علَى ما أَشَرْنا إلَيْهِ مِنْ أنَّ الناسَ اعْتَنَقَتِ الإسلامِ لِقِيَمِهِ العُلْيا ومُثُلِهِ السامِيَةِ أَمْران:
الأَوَّلُ: **المُقارَنَةُ بَينَ** البِلادِ التِي فَتَحَها الإسْلامُ فِي صَدْرِ دَعْوتِهِ؛ ومِنها الرومُ وفارِسُ؛ وبَيْنَ البِلادِ الإسلامِيَّةِ التِي هاجَمَتْها الحَمَلاتُ الصَّلِيبِيَّةُ فِي مَراحِلِها المُخْتَلِفَةِ؛ إلَى العَهْدِ القَرِيبِ الذي عُرِفَ بِعَهْدِ (الاسْتِعْمار)، فَإنّنا رَأَيْنا الأُولَى (الرومَ وفارِس) قَدْ دَخَلَ مِنْهُمْ فِي دِينِ الإسلامِ أُمَمٌ لا تُعَدُّ ولا تَحْصَى، ولا يَزَالُونَ يَعْتَنِقُونَهُ إلَى اليَومِ علَى ما مَرَّ بِهِمْ من فَتَراتِ انْحِسارٍ وضَعْفٍ عَبْرَ التاريخ، **ولَمْ نَرَ شَيْئاً مِن هَذا** وقَعَ لِلبِلادِ التِي غَزاها الصلِيبِيُّونَ والمُسْتَعْمِرونَ؛ فَلا نَعْلَمُ أنَّ بِلْدَةً مِن بِلادِ الإسلامِ دَخَلَتْ فِي دِينِ الغَزاةِ المُسْتَعْمَرين، بلْ وقعَ فِي التاريخِ عَكْسُ ذلكَ!؛ فَدَخَلَ المُسْتَعْمِرُ فِي دِينِ أَهْلِ البلادِ (الإسْلامِ)؛ كما وَقعَ لأُمَمٍ من التتار!.

والثانِي: **المُقارَنَةُ بَينَ أَثَرِ الإسْلامِ** علَى البِلادِ التِي فَتَحَها؛ ومِنْها الأَنْدَلُس (أسْبانيا ونَواحِيها)؛ وما انْتَقَلَ إلَى تِلكَ الأُمَمِ بِسَبَبِهِ مِن العِلْمِ والثَّقافَةِ وخُرُوجِ الأُمَمِ الأوُرُوبِيَّةِ مِن عُصُورِها الوُسْطَى؛ عُصُورِ الظَلامِ، بَلْ إنَّ بَعْضَ المُصَنِّفِينَ الأوُرُوبِيِّينَ أَسِفَ لِهَزِيمَةِ المُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ بلاَطِ الشهُداءِ لأنَّها كانَتْ سَبَباً فِي تَأَخُّرِ العِلْمِ والثَّقافَةِ عَن أوروبا وبَقائها فِي ظُلُماتِ الجَهالَةِ ثَمانِيَةَ قُرُونٍ أخْرى!، **فَقارِنْ بَينَ هَذا وبَينَ أَثَرِ (المُسْتَعْمِرِ) علَى البِلادِ الإسلامِيَّةِ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ وما خَلَّفَهُ فِيها مِن جَهْلٍ وفُرْقَةٍ وفَقْرٍ ومَرَضٍ؟!.**

إنَّ الجِهادَ فِي دِينِ الإسْلامِ؛ لَيْسَ حُبّاً للقَتْلِ وَسَفْكِ الدِّماءِ كَما يُرَوَّجُ لَهُ، بَلْ هُوَ سُلْطَةٌ شَرْعِيَّةٌ تَنْفِيذِيَّةٌ؛ تَحْكُمُها قَوانِينٌ صارِمَةٌ وحُدُودٌ قاطِعَةٌ لا هَوادَةَ فِيها؛ ولا يَحِلُّ للمُسْلِمِ الخُرُوجُ عَن قانُونِها بِحالٍ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ المِشْرَطِ فِي يَدِ الطَّبِيبِ - لا يَسَعُهُ أنْ يَتَجاوَزَ بِهِ حَدَّ الضَّرُورَةِ - لإزالَةِ كُلِّ وَرَمٍ يُعَرِّضُ الجَسَدَ للهَلاكِ.

وفِي أَحْكامِ **الجِهادِ** فِي الإسْلامِ **مِن رِعَايَةِ المَصالِحِ** العامَّةِ والخاصَّةِ **ما لا مَثِيلَ لَهُ،** ولَيْسَ ما يَقَعُ مِن الخَطأِ فِيها مِن بَعْضِ جَهَلَةِ المُسْلِمِينَ حُجَّةً للطاعِنِ فِي ذَلك، **فَمِمّا وَرَدَ بِهِ الشرْعُ مِن ذلكَ:**
الإحْسانُ إلَى الأسْرَى بالكِساءِ والطَّعامِ؛ والنَّهْيُ عَن التَّعَرُّضِ لَهُمْ بالعَذابِ والأَذَى.
وتَخْيِيرُ الإمامِ فِي الأَسْرَى بَينَ الفَداءِ والمَنِّ علَيْهِمْ بِدُونِ مُقابِل، أوْ القَتْلِ، هُو تَخْيِيرٌ بِحَسَبِ مَصْلَحَةِ الشرْعِ والدِينِ، ولَيْسَ للإمامِ أنْ يَفْعَلَ من ذلكَ

تَشَهِّياً ما شاءَ، وإِنَّما يُقْتَلُ مِن الأَسْرَى مَنْ تَعاظَمُ علَى الإسْلامِ خَطَرُهُ وعُلِمَ أنَّ ضَرَرَهُ لا يَنْدِفِعُ إلاّ بِذلك.
ومِنْهُ النَّهْيُ عَن قَتْلِ النِّساءِ والصبْيانِ فِي الحَرْبِ إلا من باشَرَ القِتالَ مِنْهم.
كَما نَهَى عَنِ التّعَرُّضِ للشُّيوخِ والزَّمْنَى والرُّهْبانِ والمَنْقَطِعِينَ عَن الناسِ، وكَلِّ مَن لا شَأنَ لَهُ بالقِتالِ والحَرْب.
وأَمَرَ بالكَفِّ عَمَّنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ من الكُفّارِ؛ وحَرَّمَ التَّعَرُّضَ لَهُ؛ ولَو فَعَلَ قَبْلَ ذلكَ بالمُسْلِمِينَ ما فَعَل.
وإذا أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي دارِ الحَرْبِ ولَهُمْ مالٌ وأرَضُونَ فَهِيَ لَهُمْ
ونَهَى عَنِ الغَدْرِ أَشدَّ النَّهْيِ وأوجَبَ الأمانَ لِمَنْ طَلَبَهُ ولَوْ بإشارَةٍ فُهِمَ مِنْها طَلَبُ الأمانِ؛ حَتَّى وإنْ لَمْ يَقْصِدْها صاحِبُها!. كما أَمَرَ بإجارَةِ المُسْتَجِيرِ وإبْلاغِهِ مأْمَنَهُ إنْ سألَ ذلك.
ونَهَى عَنِ المُثْلَةِ وأمَرَ بإحْسانِ القَتْلِ إنْ دَعَتْ إلَيْهِ ضَرُورَةٌ، وقَدْ قالَ اللهُ تعالَى فِي كِتابِهِ الكَرِيم: { وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}؛ فَقابَلَ: {يُقْتَلْ} بِقَوْلِهِ: {يَغْلِبْ} إشارَةً إلَى أنَّ المُسْلِمَ لا يَقْصِدُ بالقِتالِ والقَتْلِ نَفْسَ القَتْلِ، وإنَّما غَايَتُهُ أَنْ يَغْلِبَ دِينُ اللهِ ويَنْتَصِرَ، فَلا حَظَّ لِنَفْسِهِ ولا لِهَواهُ فِي ذلكَ، وإنَّما هَواهُ تَبَعٌ لَما جاءَ بِهِ الشَّرْعُ وَحْدَه.
وحَرَّمَ الغُلُولَ مِن الغَنِيمَةِ؛ **وَالقِتالَ** طَلَباً للدُّنْيا وعُلُوِّ الذكْرِ بيْنَ الناس **ورَغْبَةً** فِي المَغْنَمِ **واتِّباعاً** للهَوى، ولَمْ يَجْعَلْ مَنْزِلَةَ الشهادَةِ إلا لِمَنْ قاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ تَعالَى هِي العَلْيا.
وأمَرَ بِقُبُولِ الجِزْيَةِ من أَهْلِ الذِّمَّةِ إنْ بَذَلُوها، وأنْ يُوفَّى لَهُمْ بَعَهْدِهِم؛ وأنْ يُقاتَلَ مِن وَرائِهِمْ؛ ولا يُكَلَّفُوا إلاّ طاقَتَهُمْ.
والكلامُ فِي هَذا يَطُولُ؛ وإنّما اكْتَفَيْنا بالإشارَةِ إلَى جَمْلَةٍ تُرْشِدُ طالِبَ الحَقِّ إلى ما سِواها، واللهُ يَهْدِي مَن يَشاءُ إلَى صِراطٍ مُسْتَقِيم.

ولا يُنْكَرُ أنَّ المُجْتَمَعَ الإنْسانِيَّ يُؤَثِّرُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ، وما يَسْرِي مِن الفَسادِ فِي أُمَّةٍ يَؤَثِّرُ فِي غَيْرِها؛ بِحَسْبِ كَثْرَةِ الاخْتِلاطِ بَينَ الأُمَّتَينِ وقِلَّتِهِ، كَما نُشاهِدُ ذلكَ فِي أيامَنا هَذِهِ التِي تَقارَبَ فِيها الزّمانُ والمَكانُ حَتَّى أَصْبَحَ العالَمُ بمَنْزِلَةِ القَرْيَةِ الواحِدَة، وعَلَى هَذا يَعْتَمِدُ ما يُسَمَّى بِمَبْدَأِ (العَولَمَةِ) أصْلاً، **وحَيْثُ أنَّ الأُمَّةَ المُسْلِمَةَ – وهِي التِي يَجْمَعَهُا الإسلامُ؛ لا اللّوْنُ؛ ولا اللغَةُ؛ ولا الجِنْسُ – تَنْزِلُ مِن المُجْتَمِعِ الإنْسانِيِّ مَنْزِلَةَ القَلْبِ مِنْهُ؛** فَهُوَ مِن بَقِيَّةِ الأعْضاءِ بِمَنْزِلَةِ المَلِكِ والسلْطانِ مِن الجُنْدِ؛ **حَيْثُ كانَتْ تِلكَ مَنْزِلَتُها تَعَيَّنَ عَلَيها أنْ تَحْتَفِظَ بِأسْبابِ القُوَّةِ ونَبْضِ الحَياةِ؛ وأنْ تَرْعَى الجَسدَ حَقَّ الرِّعايَةِ؛ وأنْ تَعْمَلَ جاهِدَةً علَى إيْصالِ نَبْضِ الحَياةِ إلَيهِ، لأَنَّهُ مَتَى لَمْ يَقَعْ لهُ ذلكَ تَعَرَّضَ للمَوْتِ والتَّلَفِ؛ ويَتَعَيَّنُ حِينَ ذلكَ أنْ يَتَناوَلَهُ الجَرَّاحُ بالمِشْرِطِ وإلاّ سَرَى المَوتُ إلَى بَقِيَّةِ الجَسدِ، وذلكَ هُوَ الجِهادُ فِي الإِسلامِ.**

والنَبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيهِ وسلّمْ - وهُو الذِي جاءَ بِدَعْوَةِ الإسلامِ؛ وقاتَلَ لأَجْلِهِ خُصُومَ الدَّعْوَةِ الذِينَ وَقَفُوا لَها بالمِرْصادِ - **غَزا بِنَفْسِهِ** فِي سَبْعٍ

وعِشرِينَ غَزْوَةً؛ وأَرْسَلَ اثْنَتَينِ وثمانِينَ سَرِيَّةً، **ولَمْ يُقْتَلْ مِن خُصُومِ دَعْوَةِ الإسْلامِ فِي جَمِيعِ هَذا سِوَى عَدَدٍ لا يَتَجاوَزُ الأَلْفَ، لكِنَّها – وشرَفُ الحَرْبِ تُعْرَفُ بِثمارِها – كانَتْ سَبباً لِنَشْرِ العَدْلِ والخَيْرِ وانْتِشارِ نُورِ الهِدايَةِ فِي العالَمِين،** ولمَا انْتَصَرَ عَلَى كُفارِ مَكَةَ الذِينَ آذَوْهُ وأَخْرَجُوهُ لَمْ يَكُنْ جَوَابَهُ علَى صَنِيعِهِمْ بِهِ إلاَّ أنْ عَفا وصَفَحَ؛ وبِهِ اقْتَدَى فِي ذلكَ خُلَفاؤُهُ والفاتِحُونَ مِن بَعْدِهِ، **فَأَينَ هَذا مِمّنْ حَصَدُوا ما لا يُحْصَى مِن الأَمَمِ** والبَشَرِ، مِن أَمْثالِ (هِتْلَرْ)؛ و(مُوسِيلِيني)؛ و (اسْتَالِينَ)؛ و (لِينِينَ)؛ وغَيْرِهِم مِمّنْ لا يَزالُونَ يَخْرُجُونَ إلَى يَوْمِنا هَذا، **ومِنْ أيِّ الأُمَمِ خَرَجَ هَؤلاء؟!.**

قَرَأَنَا فِي أَخْبارِ العالَمِ الغَرْبِيِّ – اليَومَ – عَن انْتِشارِ الجَرِيمَةِ انْتِشاراً لا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ؛ واعْتَرَفَتْ الدّوائِرُ الرَّسْمِيةُ بالعَجْزِ عنْ إحْصاءِ الأَرْقامِ الحَقِيقِيَّةِ هُناكَ، فَفِي تَقْرِيرٍ لِمُؤَسّساتٍ رَسْمِيَّةٍ فِي الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأمْرِيكِيَّةِ عامَ (2003) بَلَغَ مَجْمُوعُ تِسْعَةِ أنواعٍ مِن الجَرائمِ التِي وقَعَتْ فِي ذلكَ العامِ؛ ومِن بَيْنِها جَرائمُ القَتْلِ والعُنْفِ والاغْتِصابِ والسَّرِقاتِ (23653076) جَرِيمَةً!؛ هَكَذا؛ ثَلاثَةً وعِشرِينَ مِلْيُوناً و...؛ ولا تَظُنَّ أَنَّهُ خَطأٌ فِي الرَّقَمِ!، وذُكِرَ فِي التقْرِيرِ أنَّ عَدَدَ السكانِ فِي ذلكَ العامِ بَلَغَ إلَى (290788976)؛ ومَعْنَى هَذا أنّ هُناكَ جَرِيمَةً تَقَعُ بَينَ كُلِّ اثْنَي عَشَرَ شَخْصاً مِن مُجْمُوعِ السَّكانِ!، هَذا مَعَ اعْتِرافِ تِلكَ الدَّوائِرِ أنَّ العَدَدَ الحَقِيقِيَّ لِجرائمِ الاغْتِصابِ - التِي بَلَغَتْ تِسْعِينَ ألْفاً كما فِي التَّقْرِيرِ – يَفُوقُ العَدَدَ المَذكُورَ بِخَمْسَةٍ وثَلاثِينَ ضِعْفاً!، وهَكَذا شَأنُ الجَرائِمِ الأُخْرى!.
ولَمْ يُذْكَرْ فِي هَذا التَّقْرِيرِ حَوادِثُ الانْتِحارِ التِي بَلَغَتْ فِي تَقْرِيرِ عامِ (2006) فِي المُعَدَّلِ المُتَوَسِّطِ لَها فِي أَمْرِيكا بَينَ مُخْتَلَفِ الفِئاتِ العُمْرِيةِ أكْثَرَ من عَشْرِ حالاتٍ لكُلِّ مائةِ ألْفٍ من مَجْمَوعِ السكانِ، ومِن البِلادِ التِي تُعانِي مِن أكْبَرِ مُعَدَّلِ انْتِحارٍ فِي العالَمِ، أسْتُراليا وبلْجِيكا والدانِمارك وفِنْلَنْدا والمَجَرُ وسويسْرا، وقَدْ أَثْبَتَ عَالِمُ الاجْتِماعِ الفَرَنْسِيُّ المَشْهُورُ (إيمِيلْ دُورْكايْم) الذِي ماتَ سَنَةَ (1917) بِدِراسَتِهِ لآلافِ حالاتِ الانْتِحارِ تَأْثِيرَ المُجْتَمَعِ الذِي يَعْيشُ فِيهِ المُنْتَحِرُ عَلَيْهِ تَأْثِيراً يَدْفَعُهُ لارْتِكابِ ذلكَ؛ وأَثْبَتَ هَذا فِي كِتَابٍ نَشَرَهُ عامَ (1897).
وَزِدْ علَى هَذا الإباحِيَّةَ الخُلُقِيَّةَ؛ التِي جاوزَتْ فِي تِلْكَ المُجْتَمعاتِ حَدَّ الإنْسانِيَّةِ بلِ البَهِيمِيَّةِ **- دَعْ عَنْكَ الدِّينَ والخُلُقَ فَقَدْ وُئِدَا هُناكَ مَنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ** -؛ وما أَنْتَجَتْهُ مِن الأَمْراضِ النَّفْسِيَّةِ والجَسَدِيَّةِ التِي يَضِيقُ عَن حِكايَةِ شَيءٍ مِنها مَقالُنا هَذا!.
أَلَيْسَ شَأنُ المُجْتَمَعاتِ التِي تَبْلَغُ هَذا الحَدَّ مِن مُمَارَسَةِ الجَرِيمَةِ هُو شَأنَ مَن يُقْدِمُ علَى الانْتِحارِ، أو يَفْعَلُ ما يُودِي بِحَياتِهِ وحَياةِ الآخَرِينَ ويُلْحِقُ الضّرَرَ بالمَجْمُوعِ؟.
أَلَيْسَ الأَخْذُ علَى يَدِ مَن يَصْنَعُ ذلكَ؛ ومَنْعُهُ مِنْهُ بِما يُحْتاجُ إلَيهِ مِن القُوَّةِ؛ أَلَيْسَ ذلكَ من الرَّحْمَةِ بِهِ وبِمَنْ سَيَجْنِي عَلَيْهِمْ بِجَرائِمِهِ من البَشَرِ؟.

الجَهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ هُوَ هَذا، إنْقاذٌ لِحَياةِ الأُمَمِ مِن الضَّياعِ؛ وصِياغَةٌ للإنْسانِ مِن جَديدٍ، ولِذا وجَبَ فِي الإسلامِ تَقْدِيمُهُ علَى مَحَبَّةِ

كُلِّ شَيءٍ مِن الأَهْلِ والوَلَدِ والمالِ تَقْدِيماً للمَصْلَحَةِ العامَّةِ علَى المَصالِحِ الخاصَّةِ، **ولِيَقْرَأْ مَن يَنْشُدُ الحَقَّ والإنْصافَ ما كانَ عَلَيهِ حالُ الأُمَمِ قَبْلَ الإسلامِ؛** فِي إمْبراطُورِيَّةِ بِيزَنْطَةَ وما بَلَغَتْهُ من الجَورِ والظُّلْم، وكَيفَ عَشقَ الرُّومانُ المُجُونَ والتَّرَفَ؛ والتَّمَتُّعَ بالمُصارَعاتِ الدَّمَوِيَّةِ فِي المَيادِينِ الرِّياضِيَّةِ بَينَ الرجالِ والرجالِ؛ أو الرجالِ والسباعِ!، وما كانَ عَلَيهِ حالُ أُمَمِ الفُرْسِ مِن الإباحِيَّةِ الفاجِرَةِ؛ حَتَّى كانَ مَن شاءَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ علَى نِساءِ غَيرِهِ فعلَ؛ وَكَثُرَ خَوْضُهُمْ لِلحُرُوبِ المُهْلِكَةِ خِدْمَةً لأَهْواءِ السلاطِينِ والمُلُوك، وهَكذا الحالُ مَعَ أُمَمِ الهِنْدِ وغَيرِها، **فَأَيْنَ كانَ حالُ هَذِهِ الأُمَمِ قَبْلَ الإسْلامِ؛ وأيْنَ صارَتْ بَعْدَهُ؟!.**

وهَكَذَا الشَأْنُ مَعَ هَذِهِ الأُمَمِ الغَرْبِيَّةِ التِي نَرَاها!، لَوْ أنّ الإسْلامَ حَكَمَها وأَخْضَعَها لِهَيْبَتِهِ وسُلْطانِهِ - كَما يُخْضِعُ رِجالُ الحُكْمِ وحُرَّاسُ الدَّوْلَةِ الخارِجَ عَن القانُونِ للْقانُونِ – لَكانَ ذلكَ رَحْمَةً بِها؛ وكَفّاً لَها عَما تَقُومُ بِهِ مِن إهْلاكِ نَفْسِها وغَيْرِها مِن الأُمَمِ، وَإذا كانَ الدكْتُور (ايِرانْدُونْ سَنْتَرْوال) - وهُو مُخْتَصٌّ بِدِراسَةِ عِلْمِ الأَوْبِئَةِ (Epidemiology) - قَدْ أَجْرَى دِراسَةً دامَتْ ثلاثِينَ عاماً!؛ وَتَوصَّلَ مِن خِلالِها إلَى أَنَّ جِهازَ (التِّلْفاز) مِن أَكْبَرِ أسبابِ ارْتِفاعِ مُعَدَّلِ الجَرِيمَةِ، وذكَرَ أنّهُ لَو لَمْ يُخْتَرَعِ (التلفاز)! لانْخَفَضَتْ جَرائمُ القَتْلِ فِي أَمْرِيكا بِنِسْبَةِ عَشَرَةِ آلافِ جَرِيمَةِ قَتْلٍ سَنَوِيا، وسبعِينَ أَلف جَريمَةِ اغتِصابٍ، وسَبْعِمائةِ ألفِ جرِيمَةِ عُنْفٍ!، **فَكَيْفَ لَوْ كانَ الإسْلامُ هُوَ الحاكِمَ المُهَيْمِنَ علَى تِلْكَ الأُمَمِ، وهُو الدِينُ الذِي جَاءَتْ أَحْكامُهُ رادِعَةً زاجِرَةً؛ تَكُفُّ أَيْدِي العابِثِينَ بالدِّينِ والدِّماءِ والأَعْراضِ والأَمْوالِ والعُقُولِ؟!، فَكَمْ عَساهُ يُنْقِذُ مِن تِلْكَ الأَمَمِ التِي لَمْ تَكْتَفِ بِصِناعَةِ الجَرِيمَةِ فِيما تَصْنَعُ، بَلْ قامَتْ علَى تَصْدِيرِها إلَى غَيْرِها من الأُمَم!.**

والغَرْبُ يَكْثِرُ الحَدِيثَ عَن خَطَرِ الإسْلامِ علَى الحَضارَةِ الغَرْبِيَّةِ!، وهَذا قَدْ بَلَغَ مِن المُخادَعَةِ والكَذِبِ والتَّزْوِيرِ مَبْلَغاً يَحِلُّ لكَ مَعَهُ أنْ تَنْتَقِيَ لَهُ مِن عِباراتِ الوَصْفِ ما شِئْتَ، **لأَنَّهُمْ إنْ أَرادُوا التَّقَدُّمَ العِلْمِيَّ والصِّناعِيَّ فَفِي القُرْآنِ أَكْثَرُ مِن أَلْفِ آيَةٍ تُرْشِدُ إلَى هَذا!،** والتارِيخُ الإسْلامِي يَشْهَدُ للمُسْلِمِينَ بِطُولِ الباعِ فِيهِ؛ بَلْ بِفَضْلِهِمْ علَى الأَورُوبِّيِّينَ فِي ذلك، **وإنْ أَرادُوا الحُرِّيَّةَ التِي يَزْعُمُونَ والتِي أَشَرْنا إلَى بَعْضِ آثارِها،** فَلْيَأْخُذُوا بِكَلِمَةِ (الحُرِّيَّةِ) علَى إطْلاقِها، ولِيُخَلُّوا بَينَ الناسِ إذَنْ وما أَرادُوا؛ كُلٌّ كَما يَشْتَهِي ويُرِيد، ولا حاجَةَ حِينَئِذٍ إلَى القانُونِ ولا إلَى الشُّرَطِ ولا إلَى الحُكُومَةِ وَلاَ إلَى شَيْءٍ مِنْ مُؤَسّسَاتِها، **فَإنْ قالُوا:** لا يَصْلُحُ أَمْرُ الدَّوْلَةِ والناسِ إلا بِقانُونٍ وقائمٍ علَيهِ، **قِيلَ لَهُمْ:** قَدْ تَقَدَّمَ بَيانُ بَعْضِ ما أَثْمَرَتْ قَوانِينُكُمْ وحُرِّياتُكُمْ!، **أَفَحَضارَةٌ هَذهِ** التِي يُعاشِرُ الرجُلُ فِيها ابْنَتِهُ؛ والأخُ أُخْتَهُ؛ والابنُ أُمَّهُ؛ وأَقْوامُهُمْ بِذلكَ يُنادُونَ، وبِهِ علَى رُؤوسِ المَلأِ يَفْتَخِرُونَ؟!. **أَفَحَضارَةٌ هَذِهِ** التِي يَنْتَشِرُ فِيها الشُّذُوذُ والضّياعُ، حَتّى غَدَتْ نِساؤُهُمْ تُعاشِرُ الكِلابَ والبَهائِمَ! بَعْدَ أنْ خَلَّوْهُنَّ دَهْراً طَوِيلاً بِلا حَسِيبٍ ولا رَقِيبٍ؟!. **وإذا كانَتْ (الحُرِّيَّةُ) هَذِهِ سَبَباً لسِعادَةِ المَرْءِ كَما يَزْعُمُونَ؛ فَلِمَ بَلَغَتْ حالاتُ الانْتِحارِ والأمْراضُ النفْسِيَّةُ مَبْلَغاً يُهَدِّدُ المُجْتَمَعَ بالزوالِ والفَناء؟!.**

أُفٍّ لَهَمْ ولِما يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلا يَعْقِلُونَ؟!، أَلأَجْلِ أنَّ الإسْلامَ يَحُولُ بَيْنَهَمْ وبَينَ تَرَدِّيهِمْ أَسْفَلَ سافِلِينَ؛ وأَنْ يَغْدُوا أَحَدُهُمْ صَرِيعَ نَزَواتِهِ وشَهَوَاتِهِ؛ حَتَى يَنْتَهِيَ بِهِ المَطافُ إلَى حُفْرَةٍ يُلْقَى فِيها إلْقاءَ الجِيفَةِ ولَم يَذُقْ مِن الدُّنْيا حَلاوَةَ ما خَلِقَ لأَجْلِهِ؟!، **أَلأَجْلِ ذلكَ يَحْذَرُونَ مِن الإسْلامِ ويَهابُونَ سَطْوَتَهُ**؛ فَيُحَذِّرُ مِنهُ مِثْلُ (أَشْعِيا بُومان)؛ وأنَّ شَيئاً مِن الخَوفِ يَجِبُ أَنْ يُسَيطِرَ علَى العالَمِ الغَرْبِيِّ؛ لأَسْبابٍ؛ مِنها أنَّ الجِهادَ رُكْنٌ مِن أَرْكانِه؟!، وقَرِيبٌ مِن هَذا قَوْلُ (أَنْتُونِي ناتَنْجْ) فِي كتابِهِ: العَرَبِ، وقَولُ (سالازار) فِي مُؤْتَمَرٍ صُحُفِي، وقَولُ مَسْؤولٍ فِي وزارَةِ الخارِجِيَّةِ الفَرَنْسِيَّةِ فِي تَصْرِيحٍ لَهُ عام (1952)، وقُولُ (مُورو بيرْجَر) فِي كتابِهِ: العالَمُ العَرَبِيُّ المُعاصِر، وقَولُ (هانُوتُو) وزَيرِ خارِجِيَّةِ فَرَنْسا، وتَصرِيحاتٌ أُخْرى لا تَزالُ تُقالُ بَينَ الحِينِ والحِين إلَى يَوْمِنا هَذا، **ولَيْسَ هَذا الخَوْفُ نَابِعاً مِن خَطَرِ الإسْلامِ عَلَى الحَياةِ كما يَزْعُمُون، وإنَّما هُو مِن قَبِيلِ خَوْفِ المُفْسِدِ فِي الأَرْضِ مِمّنْ يَأْخُذُ عَلَى يَدِهِ!، وَخَوفُ المُجْرِمِ ورَهَبَتُهُ مِن القانُونِ الذِي يَرْدَعُهُ ويَكُفُّ ضَرَرَهِ عَن نَفْسِهِ وعنْ غَيرِهِ؛ إنما هُو رَحْمَةٌ بِهِ وبِغَيرِهِ،** ولِذا قالَ تعالَى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ..}، وقَدْ قَدَّمْنا أنَّ الإسْلامَ دِينٌ قَدْ كُلِّفَ بِهِ الخَلْقُ أجْمَعُونَ، فَلا بَدَّ للقائمِ علَيهِ من حِفْظِ أَسْبابِ القُوَّةِ، وأحْسَبُ أَنَّ (ولْ ديورانَتْ) قَدْ فَهِمَ هَذهِ الحَقِيقَةَ حِينَ قالَ فِي كِتابِهِ (قِصَّةِ الحَضارَة): **وليْسَ فِي التَّارِيخِ دِينٌ غَيرَ دِينِ الإسْلامِ يَدْعُو أَتْباعَهُ علَى الدَّوَامِ إلَى أَنْ يَكُونوا أَقوِياءَ!؛ ولَمْ يُفْلِحْ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ دِينٌ آخَرُ بِقَدْرِ ما أَفْلَحَ فِيهَا الإسْلامُ.** انْتَهى.

وما دامَتْ شَرِيعَةُ الإسْلامِ هِيَ سُلْطانَ اللهِ فِي الأَرْضِ؛ وما دامَ المُسْلِمُونَ هُمُ القائِمِينَ علَيها، فَإنَّ الإسْلامَ لا بُدَّ لَهُ من حِفْظِ الهَيْبَةِ التِي لا بَقاءَ للسُّلطانِ إلاَّ بِها، لأَنَّ السلْطانَ مَتَى فَقَدَ ذلكَ تَسَلَّطَ علَيْهِ الأرْذالُ بِأَنْواعِ الإهانَةِ وَالإذْلالِ والأَذَي؛ وقانُونُ حِفْظِ الهَيْبَةِ للشَّرْعِ هُو الجِهادُ فِي سَبِيلِ الله، ولِيُسَمِّهِ مَنْ شاءَ إرْهاباً أو ما شاءَ فَإنَّ ذلكَ لا يَغُيِّرُ مِن الحَقِيقَةِ شَيئاً، ولذا ورَدَ الوَعِيدُ بِتَسلِيطِ الذُّلِّ علَى المُسْلِمِينَ إنْ تَركُوهُ - وفِي ذلكَ فُقْدانُ دَوْلَةِ الإسلامِ وذَهابُها- ، وأنْ لا خَلاصَ لَهُمْ إلاَّ بالعَوْدَةِ إلَى دِينِهِمْ وجِهادِهم، والنّبِيُّ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّمَ قَدْ ضَرَبَ مَثَلاً للقائمِ علَى حُدُودِ اللهِ والواقِعِ فِيها بِقَوْمٍ اجْتَمَعُوا فِي سَفِينَةٍ واحِدَةٍ؛ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاها وبَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِها، وأَرادَ الذينَ فِي أَسْفَلِها أَنْ يَخْرِقُوا فِيها خَرْقاً طَلَباً للماءِ، فَإنْ أَخَذَ الذِينَ مِن فَوْقِهِمْ علَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا كُلَّهُمْ وإلاَّ هَلَكُوا أَجْمَعِين.

إنّ مِن العَجَبِ الذِي لا يُوازِيهِ عَجَبٌ سِواهُ؛ أَنْ تَبْلُغَ تِلْكَ الأُمَمُ مِنَ العِلْمِ واكْتِشافِ أَسْرارِهِ مَبْلَغاً لَمْ يَعُدْ خافِياً علَى أَحَدٍ؛ ثُمَّ يَعْجَزُ عُقَلاؤُها مَعَ ذَلِكَ عَنِ اكْتِشَافِ الإسْلامِ وسِرِّ عَظَمَتِهِ وثَباتِهِ فِي النُّفُوسِ؛ وهُمْ قَدْ رَأَوا – ولا يَزالُونَ يَرَونَ – كَيْفَ تَهاوَتْ وتَتَهاوَى كُلُّ دَعْوَةٍ سِواهُ؛ وتَذْهَبُ ذَهاباً لا رَجْعَةَ بَعْدَهُ إلَى الحَياةِ!، وغايَةُ

.....

.....

النِّهايَةِ فِي الغَرابَةِ أنْ يَكْتَفِيَ القَومُ فِي حُكْمِهِمْ عَلَى الإسْلامِ – وهُمُ الذِينَ يَمْتَلِكُونَ آلَةَ البَحْثِ العِلْمِي - بِأقْوالٍ تَتَحامَلُ علَيْهِ؛ ولا تَنْتَسِبُ إلَى الإنْصافِ؛ ولا إلَى أُصُولِ مَعْرِفَةِ الحَقِيقَةِ بِصِلَةٍ!.

إنّنا نَقُولُ – كَما يَقُولُ كَلُّ مَنْ عَرَفَ دِينَ الإسْلام حَقَّ المَعْرِفَةِ بَعِيداً عَنِ التَّزْوِيرِ والمُخادَعَةِ والتّلْفِيقِ؛ ودانَ باللهِ رَبّاً وبالإسْلام دِيناً وبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّمَ رَسُولا -؛ نَقُولُ: **إنّ (الجِهادَ) مِنَ الإسلامِ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ من الجَسَدِ، وكَما أنَّهُ لا جِهادَ بِلا إسْلامٍ فَكَذلكَ لا إسْلامَ بِلا جِهادٍ، وَكَما أنَّ المُسْلِمَ مَأْمُورٌ بالإسلامِ والتِزامِ شَرائِعِهِ إلَى المَوْتِ الذِي لاَ يُخْطِئُ أحَداً من البَشَرِ؛ فَإنّهُ كَذلكَ مَأْمُورٌ بِالجِهادِ رَحْمَةً بالخَلْقِ وإنْقاذاً لأُمَّةِ الإسلامِ أوَّلاً؛ وللبَشَرِيَّةِ كُلِّها مِن دَرَكاتِ الشقاءِ وجَهْدِ البَلاءِ ثَانِياً؛ حَتَّى يَأتِيَهُ اليَقِينُ، وذلكَ تَكْلِيفُ اللهِ تَعالَى وشَرْعُهُ؛ والمُسْلِمُونَ عَبِيدُهُ؛ ولا نَجاةَ ولا خَلاصَ لَهُمْ ولا لأحَدٍ مِن الخَلْقِ إلا بِعِبادَتِهِ وامْتِثالِ طاعَتِهِ وأمْرِه.**

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}؛ (سَورَةَ المائدَة؛ الآيةُ: 64).

وباللهِ التَّوْفِيق.

وكَتَبَهُ: خادِمُ العِلْمِ وأَهْلِهِ:
كانَ **اللهُ** لَه.
أبُو الوليد الغَزَّيُّ الأنْصارِيُّ